١٩٩٢/٧/٩

صوت العمال -صت الخميس ٩ يوليو ١٩٩٢م / الموافق ٨ محرم ١٣ هـ / العدد ١٠٦٦/ السنة الرابعة والعشرون

التربية الإسلامية قبل التعليم الديني

علوي عبد الله طاهر

مما لاشك فيه ان هناك فرقاً بين التربية الدينية والتعليم الديني ،فالتربية الدينية تختلف في مفهومها عن التعليم الديني ، فإذا كان التعليم الديني يعتمد على تدريس بعض الموضوعات الدينية للطلاب كدراسة وحفظ بعض الآيات والاحاديث النبوية ، والوقوف عند سير بعض الرجال الصالحين ، والالمام ببعض المسائل المتعلقة بالعبادة والعقيدة والمعاملات، فإن التربية الدينية أعم وأشمل من التعليم الديني ،لأنها لاتعتمد على المعارف الدينية فحسب ،بل تعتمد أساساً على القدوة الحسنة ،وعلى الجو الاسرى وعلاقات الاسرة ببعضها وبالمجتمع ،كما تعتمد على اختيار الاصدقاء ذوي السلوك الحسن ، وعلى الظروف الاجتماعية بصفة عامة ،وما المعارف الدينية إلا وسيلة لتعزيز التربية الدينية.

وقد اعتنى المسلمون الأول بالتربية الدينية الاسلامية اكثر من عنايتهم بالتعليم الديني ،حيث كان المرء يطالب بأن يسلك سلوكاً اسلامياً في حياته اليومية وفي معاملاته مع الاخرين ،اكثر مما يطالب بترديد ايات او احاديث حفظها عن ظهر قلب دون فهم لمعانيها ،أو يسأل عن مسائل فقهية لاوجود لها في الواقع.

وقد انتشر الاسلام في العالم عن طريق التجار والمسافرين اكثر مما انتشر على أيدي الوعاظ والمرشدين أو الدعاة ، لأن سلوك التجار المسلمين كان نموذجاً يحتذى في المعاملات بين الناس ،وكان المسافرون المسلمون حينما ينتقلون من بلد الى اخر يمثلون القدوة الحسنة في السلوك والتصرفات، وكان كل من تعامل مع التجار المسلمين أو سافر في قافلة إسلامية يجد نفسه منجذباً الى هؤلاء القوم ومعجباً بسلوكهم وحسن معاملاتهم ، فيدخل في الاسلام تحت تاثير القدرة الحسنة والمعاملات الطيبة ، المستوحاة من الدين الاسلامي الحنيف وتعاليمه السامية .وبدافع الرغبة في معرفة الإسلام من قبل المسلمين ظهرت الحاجة الى الدعاة والوعاظ والمرشدين ليعرفوهم حقيقة الاسلام ومبادئه ، او ليستشيروهم في بعض المسائل المتعلقة بالعبادات والمعاملات ،. وغيرها من الامور المتعلقة بحياتهم ،وقد حظي هؤلاء الدعاة والوعاظ بمكانة رفيعة في المجتمعات الإسلامية ، وصلت عند بعضهم الى درجة القداسة، مما شجع بعض الناس للتخصص في العلوم الدينية على اختلاف انواعها فظهر من جراء ذلك عدد من العلماء المسلمين الذين خدموا الاسلام خدمة جليلة ، وقدموا للبشرية معارف إنسانية متنوعة، فاسهموا في بناء الحضارة الانسانية إسهاماً عظيماً ،لان معارفهم لم تنحصر على العلوم الدينية فحسب ،بل تعدتها لتشمل كل العلوم المعروفة في أيامهم ، فكان منهم الاطباء ،والمهندسون ، والفلكيون ، والكيمائيون ، والصيادلة..الخ.

ولم تكن مدارس المسلمين في يوم من الايام مخصصة للعلوم الدينية فقط ،بل كانت مدارس شاملة يتلقى فيها الدارس العلوم المختلفة ، باستثناء الكتاتيب او مايعرف في اليمن بالمعلامات ، فقد كانت هذه مخصصة لتعليم مبادىء القراءة والكتابة وقراءة القران الكريم وربما حفظ بعض أياته، أما سائر المدارس الأخرى فقد كانت معاهد شاملة لكل العلوم المعروفة وقتها ،ولهذا السبب سميت «معاهد علمية».

وللسبب نفسه كان الناس ينادون خريج هذه المعاهد بالعالم، لانه فعلاً كان عالماً وملماً بمختلف انواع العلوم ،سواء كانت علوماً دينية ام دنيوية ، اما اذا انحصرت معارفه بالعلوم الدينية فقط فإنهم ينادونه بالفقيه ، لانه تفقه في الدين وقد كان الناس يميزون بين العالم والفقيه ،فمكانة الفقيه لاتصل الى مكانة العالم وشتان بينهما فالعالم ينفع الناس في الدنيا ويدلهم على طريق الآخرة ، اما الفقيه فانه ينفرهم من الدنيا ويزهدهم بها ،وربما لم يعرفهم الطريقة الصحيحة نحو الاخرة.

وبمرور الزمن قل العلماء ،لان الحكام خافوا على مكانتهم بوجود العلماء ،حيث كانت مكانة العالم أعظم واسمى من مكانة الحاكم ،فعمل الحكام على تهميش العلماء أو اضطهادهم ،

-ومع الايام - خلت الساحة من العلماء ، ولم يبق فيها غير الفقهاء الذين ارادوا أن يملأوا الفراغ ،من غير أن تكون لديهم امكانية لذلك ، فانتحلوا لأنفسهم صفات العلماء ، حفاظاً على مكانتهم في المجتمع الاسلامي.

وقد حاول هؤلاء الفقهاء توجيه التعليم وجهة مغايرة للاتجاه الذي رسمه العلماء ، فارادوه أن يكون تعليماًدينياً خالصاً مستدلين بقوله تعالى:« من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين». فاذا قيل لهم :« إن الله يخشى من عباده العلماء » قالوا ،نعم ،نحن العلماء ، وهذه المعاهد للعلم ، وهؤلاء طلاب العلم. وإذا نظرت إليهم وإلى المعاهد التي يعلمون فيها وتاملت في طلابهم ، لرثيت لحالهم ، وتأسفت على واقع التعليم ولاشفقت على الطلاب المشاركين ، ولوقفت إجلالاً للجاحظ الذي مافتىء يذكرهم في كتبه ساخراً .

ولما كانت بعض المجتمعات الاسلامية المعاصرة تعيش في وسط جاليات أو شعوب لاتدين بالاسلام ،فقد كانت تخشى علي نفسها من أن تفقد هويتها ،أو تخاف على ابنائها من الاندماج في المجتمعات غير الاسلامية ،حتى لاينسلخوا عن الاسلام تدريجياً ،فقد ظهرت الحاجة الملحة للمعاهد الدينية المتخصصة ،فكان لابد من تاسيس معاهد وتخصص معلمين لتعليم التربية الدينية ، واللغة العربية ،في تلك البلدان ،في الاوقات التي يكون التلاميذ قد فرغوا من الدراسة النظامية ، أو انتهوا من مرحلة التعليم الاساسي ، وهدفهم من ذلك تربية ابنائهم تربية اسلامية وليس تعليماً دينياً خالصاً ،وقد حققوا في ذلك نتائج إيجابية في الحفاظ على هويتهم وعقيدتهم الاسلامية.

وإذا كانت المعاهد الدينية قد ظهرت في بعض البلدان او المجتمعات الاسلامية ،كمؤسسات تعليمية مستقلة لظروف خاصة بها ، اقتضتها متطلبات الحفاظ على الهوية الاسلامية فإن وجود مثل هذه المعاهد في المجتمع الاسلامي الخالص كاليمن ، مثلاً لاأرى ضرورة لذلك ،لأن التربية الاسلامية يجب أن تعم كل افراد المجتمع وليس شريحة معينة او جماعات معينة ، اقول التربية الاسلامية لا التعليم الديني ،لان التربية الاسلامية عند تقديمها للتلاميذ لابد ان يراعي فيها خصائص النمو عند التلاميذ ، ومظاهر تطور الشعور عندهم ، بالاضافة الى مراعاة مايدركه التلاميذ من مشاكل المجتمع بحيث ترتبط التربية الاسلامية بالمشكلات الاجتماعية والاقتصادية التي يواجهها الناس ، باعتبار الدين نظاماً شاملاً للحياة ينظم العلاقة بين الانسان وربه ،وبين الناس انفسهم . اما التعليم الديني فله مدارسه الخاصة التي ينبغي ان تكون بعد التعليم الاساسي وليس قبله ،فالافكار الدينية يجب عرضها على الاطفال الصغار في صورة خبرة واقعية ملموسة لانهم في مرحلة الاساس غير قادرين على إدراك المعاني المجردة التي لاتظهر إلا في مرحلة متاخرة من نموهم ونضجهم . لان الطفل لايفهم من الدين إلا ماكان واقعياً وملموساً ،فهو يفسر مايسمع بما يعلم ويفسر مايعلم بما يحس ويشعر.